

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

The Pleasures and Troubles of Exile in the Writings of Edward Saïd

حسين حيمر

كلية العلوم الإنسان والاجتماعية، شعبة الفلسفة، جامعة أبي بلقايد تلمسان (الجزائر).

himeurhocine@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 14-06-2022 تاريخ القبول: 21-12-2022 تاريخ النشر: 16-06-2023

ملخص: يشكل هاجس المنفى أحد المحاور الأساسية في كتابات إدوارد سعيد فهو علامة دالة وثيمة أصيلة من باب لزوم ما يلزم وخاصة في كتابيه خارج المكان وما بعد السماء الأخيرة اللذين يعتبران شكل من الأشكال السردية التي رسمت موضوع المنفى في قالب استذكري ينم عن مراجعة الذات لمسار معاناة ألم المنفى والابتعاد عن الوطن والتأصيل لضرورة الانتماء الراسخ. يؤصل إدوارد سعيد لسيرة ذاتية رافضة لإرادة الاقتلاع ومدفوعة بضرورة تأكيد حق الرجوع والانتماء. إنها سردية المنفى التي جعلت من الكتابة ملاذا للاستيطان فهي كتابة تسعى لاستباق فقد الزمان بالموت بعد فقد المكان بالنفي وهذا تسعى إلى توضيحه هذه الدراسة بتقديم قراءة للمنفى في كتابات إدوارد سعيد من خلال سيرته الذاتية في كتابه خارج المكان وفي السيرة الجماعية للشعب الفلسطيني في كتابه ما بعد السماء الأخيرة

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد، المنفى، الكتابة، المواطن، المكان.

Abstract:The obsession with exile constitutes one of the main themes in Edward Saïd's writings. It is a sign of an authentic theme in terms of the necessity of what is needed, especially in his two books, *Out of Place* and *Beyond the Last Heaven*, which are considered a form of narrative that depicted the subject of exile in a remembrance form that indicates a self-review of the path of suffering the pain of exile And stay away from the homeland and rooting for the need for a firm affiliation. Edward Saïd originates a biography that rejects the will to uproot and is motivated by the necessity of affirming the right of return and belonging. It is the narrative of exile that made writing a haven for settlement. It is writing that seeks to anticipate the loss of time by death after the loss of place by exile, and this study seeks to clarify it by providing a reading of exile in the writings of Edward Saïd through his autobiography in his book *Out of Place* and in the collective biography of the Palestinian people in his book *Beyond After the last sky*

Keywords : Edward Saïd, Exile, Writing, Habitat, Place.

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

المؤلف المرسل: حسين حيمر himeurhocin@yahoo.com

1- مقدمة:

إن القرن العشرين هو قرن الغربة والمنفى بامتياز بإنتاجه الفكري. والمهجرة قسرية كانت أم اختيارية تعتبر مصيرا حتميا للكثير من المثقفين الكبار وكتاب هذا القرن إن جوزيف كونراد وثيودور آدورنو من بين المفكرين المبدعين الذين ارتبطت أعمالهم وكتاباتهم بموضوع المنفى. ثم أن ترحال الكتاب والمفكرين واستقرارهم في المدن البديلة قد ألبسها أردية مزركشة غير معتادة كما أنها أثرت في شكل كتاباتهم إذ يمكننا أن نشير إلى ما بين المتنبي ودانتي وغيرهما إلى إسكندرية كقافي وطنجة بولز ونيويورك إدوارد سعيد ومراكش جون جينيه واسطنبول آيوراخ وهي أوطان تتألق بانتسابهم لها. ومن ثمة فإن المشكلة التي يعالجها هذا البحث تتمثل في ما هي الآثار الإيجابية والسلبية التي خلفها المنفى في أعمال إدوارد سعيد الفكرية؟

وإذا جئنا إلى مجال وضع الفرضيات المناسبة لهذا العمل فإن القراءة الفاحصة لفكرتي متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد تبين لنا بأنه تبنى مبدأ ألا يشعر الإنسان بالاستقرار في وطنه ولا ينبغي عليه أن يحمل شعور الخوف من المنفى والرغبة في آن واحد بصورة لا واعية بل عليه أن يتجاوز ذلك ليصبح موقفه موقفا نقديا وحياتيا واعيا هذا ما جعل إدوارد سعيد يحاول شرحه مرارا وتكرارا في كتاباته.

وأما بالنسبة لتحديد أهداف البحث فإن منفي المثقف لا يعي المنفى الجغرافي بل يعي انتقاء التسامح مع أية سلطة أو مهادنتها ومن هنا جاء الحديث عن متع المنفى عند إدوارد سعيد الذي حاول أن يعيش تجربة منفاه كمثقف داخل المؤسسة الأكاديمية الغربية وفي ذات الوقت كان لا متمنيا لها بل معارضا لما هو سائد ومن حيث الممارسة السياسية فقد انغمس كانت رغبته العيش في صميم الأحداث لأنه رأى صعوبة التغيير المباشر من خارج الحدث الجوهري وهو القضية الفلسطينية التي ظل ملتزما بها بكل قواه العاطفية والنفسية والأكاديمية إلى مماته.

ومن أجل تحقيق هذه الغايات سنستخدم في هذا البحث منهجية الاستقصاء والتحليل الملائمة لطبيعة الموضوع حيث سنفحص أطروحات إدوارد سعيد حول المنفى بتحليل مضامينها الجوهرية ثم سنستخلص ما ينبغي استخلاصه من خلال تراكيب فكرية لازمة منطقيا للمقدمات المنطلق منها كما سنقترح تصميمًا متمثلا في مقدمة تحتوي على الإشكالية المطروحة وفرضيات حلها وستعرض في ثنايا هذه العملية إلى تاريخانية المنفى ومفهومه في

حسين حيدر

كتابات إدوارد سعيد، ثم سنتناول أفكار الهوية والنقد في أعمال إدوارد سعيد، وفي نهاية الدراسة سنستخلص النتائج مع فتح آفاق جديدة للبحث وذلك بطرح مسارات فكرية جديدة للمعالجة ومقارباتها مع الموضوع المنجز. 2.المتن.

2. 1 تاريخانية المنفى

2.2 المنفى قديما وحديثا :

المنفى من أعقد التجارب التي عاشها الإنسان عبر العصور وخروج سيدنا آدم وحواء من الجنة ليس سوى النموذج الأول Archetype للمنفى القسري الذي ارتبط بالعقاب نتيجة تحدي الإنسان أو تمرده. وما توق الإنسان دخول الجنة سوى الرغبة الأبدية في استعادة الوطن الأم (فاتن مرسي، 2005، ص 88)، أو الرجوع إلى مسقط الرأس. ولا نستطيع في هذه العجالة استعراض كل النماذج المختلفة للمنفى عبر التاريخ لطول القائمة ولعل القاسم المشترك بين هذه التجارب وغيرها يتعلق بتصوير قسوة المنفى على النحو الذي صوره دانتي أليجييري كما جاء على لسان كاتشاجويدا حينما تنبأ لدانتي بالرحيل عن فلورانس مشيرا إلى الشعور بالفقْد الذي يحدثه المنفى كما ارتحل هيوليتوس عن أثينا:

هكذا ينبغي لك أن تمضي مرتحلا عن فلورنس

سوف تترك أحب الأشياء إليك وتمضي

هذا هو أول سهم يطلقه المنفى

سوف تعرف كم هو مالح طعم خبز الآخرين

وتعاني من مشقة صعودك وهبوطك درج الآخرين (دانتي إليجييري، ص327). والمنفى ليس فقط حالة جغرافية يعيشها المنفي بل هو حالة انفعالية مرتبطة بقلق الهوية ارتباطا وثيقا إنه نفي عن حضارة ما ونفي عن اللغة ما في ذات الوقت لا يبعث الأحران مصير مثل العيش في المنفى الذي يعني أن يصبح المرء منبوذا إلى الأبد محروما على الدوام من الاحساس بأنه في وطنه فهو يعيش في بيئة غريبة لا يعزبه شيء عن فقدان الماضي (إدوارد سعيد، 2006، ص92). يقول فيتاغورس ناصحا المهاجر إلى أرض غريبة "إذا تركت وطنك فلا تنظر للخلف فالإيرينيس Furies ورائك. ورغم أن كلام فيتاغورس هنا كان موجها للإنسان الذي بدأ رحلته إلى العالم الآخر ونصيحته له ألا يشعر بالندم لرفاقه هذه الحياة الدنيا الزائلة فإن هذه النصيحة يمكن تعميمها على أي مرتحل مع العلم أن فيتاغورس ظل منفيا بين إيطاليا ومصر حتى وفاته. والإيرينيس أو Furies في الأساطير الإغريقية

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

كائنات لها أجنحة وتظهر الثعابين بين خصلات شعرها ومن ينظر إليها يكون عقابه أن يصاب بالجنون أو يتحول إلى حجر. وتمكن أهمية هذه الأسطورة في كونها تحمل المفارقة الكامنة في مسألة المنفى حيث ينصح فيتاغورس المرء الذي ترك وطنه ألا ينظر إلى الوراء. والنظر إلى الوراء هنا يعني أن نتذكر الماضي وهو أمر شبه أكيد ومن المستحيل تجنبه وهنا تكمن المعضلة فإذا نظرنا للخلف أي نتذكر الماضي أي وعينا وإدراكنا بحقيقة وضعنا كمنفيين فيكون هلاكنا ولكننا في نفس الوقت لا نستطيع أبداً أن نتفادى ذلك لأن التذكر ديمومة شعوري (Dogenes Laertius, 1979, P337)

2. 3 مفهوم المنفى في كتابات إدوارد سعيد:

إن منفى إدوارد سعيد تجسيد لتلك المفارقة وهي محاولة واعية منه لتجاوزها وهو يحاول تعدي التناقض الذي يدرك أنه ليس ثمة سبيل إلى حله. لأن وعي إدوارد سعيد بوضعه كمنفي وتصوره لتجربته بأبعادها المؤلمة والممتعة أيضاً لم يجعله يوماً يعتقد بإمكانية العودة إلى الوطن إن الأحداث التي تلت محنة نكبة الشعب الفلسطيني عام 1948 تركت تأثيراتها النفسية والفكرية الجسيمة على إدوارد سعيد وشكلت رؤيته لطبيعة القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي لدرجة أنه وبعد مرور أكثر من أربعة عقود من النكبة كان يحلو له أن يعرف نفسه بأنه ليس مهاجراً ولكنه يعيش منفياً في انتظار العودة (إدوارد سعيد، حوار، 2003). إن موضوع المنفى يحضر بقوة في كتابات إدوارد سعيد الفكرية والنقدية وفي المقابلات التي أجريت معه بل إن مسألة المنفى هي جوهر كتاباته المعبرة عن تجاربه وخاصة منها كتابه بعد السماء الأخيرة *After The Last Sky* الذي نشره عام 1986 وبالمناسبة فإن هذا العنوان مأخوذ من قصيدة لمحمود درويش الشاعر الفلسطيني:

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟

أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة،

أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟

سنكتب أسماءنا بالبخار الملون والقرمزي،

سنقطع كف النشيد ليكمله لحمنا

هنا سنموت. هنا في الممر الأخير

هنا أو هنا سوف يغرس زيتونه...دمننا" (فخري صالح، 2000، ص99). ويعد هذا الكتاب سيرة جماعية للمجتمع الفلسطيني في الشتات وفي الداخل إن حق لنا هذا التعبير. وكتابه خارج المكان *Out of place* الذي نشره عام 1999 والذي فاز بجائزة مجلة نيويورك الأمريكية للأعمال غير الروائية حيث أعلنت عن ذلك في نهاية

حسين حير

شهر فيفري 2000 بمثابة سيرته الذاتية. وقد وصفت لجنة تحكيم الجائزة سيرة إدوارد سعيد الذاتية بأنها توثيق لسجل المكان الذي ولد فيه وقضى فيه طفولته بدءا من شوارع القدس ووصولاً إلى القاهرة في فترة الاستعمار. ويتصف الكتاب الأول بعد السماء الأخيرة بصفة التعليق المكتوب بالاشتراك مع المصور والفوتوغرافي السويسري جون مور J. Mhoor الذي أقام معرضاً وصوراً عن حياة الفلسطينيين، أما الكتاب الثاني خارج المكان فهو سيرة إدوارد سعيد الذاتية التي كتبها في تسعينيات القرن الماضي حاول فيه عقلنة مفهوم المنفى.

وما ينبغي الإشارة له في النقد الثقافي عند إدوارد سعيد هو العلاقة المتشابكة والمتصارعة سياسياً وثقافياً

بين الثقافات الهامشية والثقافة السائدة في المجتمعات الغربية كما يجب الوقوف على هذه السياقات الفكرية

المرتبطة بتصميم الموضوع بانشغالات كل من جياتري سيفاك Gayatri Spivak وهومي بابا علي Homi

Bhabha Ali، فيما يتعلق بمفهوم جياتري سيفاك للتابع الثقافي Subaltern ولوضعه الاجتماعي والثقافي

كمشروع قائم على تساؤل جوهرى هل يمكن لأي هوية ثقافية تابعة أن تأخذ شرعيتها ويسمع صوتها في ظل فداحة الواقع العرقي وفي سياق هيمنة قمعية؟ (Gayatri spivak, 1988, PP271-31). كذلك مفهوم هومي

بابا عن التهجين الثقافي Cultural Hybridity واحتفائه بما يسميه الفضاءات البينية Liminal Spaces

(فاتن مرسى، 2005، ص 90)، ويمكن وصف تلك الفضاءات بالمنطقة التي تجدد فيها الاختلافات الثقافية

الفرص للإفصاح عن نفسها. وأما فكر إدوارد سعيد فينبغي التأكيد بأنه سعي دائم لكسر هذه القوالب التي تقف

عقبة في طريق التفكير المنفتح على الثقافات المختلفة في تعددها وراثتها (إدوارد سعيد، 2006، ص 65). وجاء

اختيار جياتري سيفاك وهومي بابا علي في هذه الدراسة لدواعي لها مبررتها فمنها بينهما اهتمامهما بالكشف عن

العلاقات بين الثقافات المتباينة سواء كان ذلك داخل الثقافة الواحدة أو في سياق ثقافات مختلفة والسبب المباشر

لذلك الاختيار يعود أساساً لكون كلا من جياتري سيفاك وهومي بابا علي يشتركان مع إدوارد سعيد في نفس

المصير الأكاديمي فكلاهما ينتمي إلى ثقافات غير أوروبية ولكنهما تبوأوا أماكن مرموقة في جامعات أمريكية

(Peter Childs and Patrick Williams, 1997, P15).

3. الهوية والنقد:

3. 1 الهوية والنقد في كتابات إدوارد سعيد :

يتفق أطراف النقد الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية على أن هناك داخل الثقافة الأوروبية

والأمريكية بشكل محاولة دوؤبة من المركز لاحتواء الهامش. ويرى الناقدان سيفاك وهومي بابا بأن هذا الوضع يمثل

عنصراً هاماً في الحركة المتواصلة في التفاعل والصراع بين هذه الثقافات المتباينة يمكن أن يعد في الوقت ذاته نقطة

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

اختلاف ومنطقة تنافس واتصال بين هذين الاتجاهين (Peter Childs and Patrick Williams, 1997, P18). ترى جياترى سبيفاك إن التابع يحاول التدرج من موضعه البعيد عن محيط الدائرة إلى مركز الدائرة وترى أنه لا سبيل لفعل ذلك سوى بخلخلة الثقافة الغربية من داخلها لينقلب الوضع وليصبح المركز المهيمن في محيط الدائرة (Gayatri Spivack, 1998, P271). وهدفها كناشطة سياسية وفاعلة في الحركة النسوية الأمريكية هو تمكين ثقافات الأقليات من تبوؤ موقع مركزي خارج العلاقات القائمة على الاختلاف داخل الثقافة الأوروبية أو الأمريكية السائدة. بيد أنها هي نفسها تجيب بالنفي القاطع عن تساؤلها الشهير: هل يمكن للتابع ان يتكلم؟ Can The Subaltern Speak? إذ ترى بأنه في ظل سيادة الأبنية الثقافية والاقتصادية والسياسية الغربية التي تستغل الاختلافات العرقية لسيط نفوذها فإن التابع الثقافي لا يجد مجالاً للتعبير الحر عن نفسه والحل عندها هو مساعدة هذا التابع You Dont Give The Subaltern Voice ليس فقط عن طريق تمكينه من التعبير عن نفسه بل مساعدته للتخلص تماماً من وضعه الهامشي. وهي لا تكتفي بأن يبقى التابع على حاله كتاب حتى وإن وجد سبيله إلى التمثيل (Gayatri Spivack, 1999, Representation P193).

وفي المقابل فإن خطاب هومي بابا علي يحتفي بالتابع ويمجد وضعه الهامشي أو ما يصفه بالفضاءات البينية الفاصلة Liminal Or Interstitial Spaces ويطرح بعض التساؤلات في كتابه موقع الثقافة The Location Of Culture 1994 تتعلق بالكيفية التي تتشكل بها هوية عناصر ثقافية تتسم بالاختلاف داخل نسق علاقات اجتماعية وسياسية معينة. ويتساءل كما تفعل سبيفاك عن الإستراتيجية التي تمكن الثقافة المهمشة تلك التي تتعرض لقوى المحو Erasure من قبل الخطاب السائد من أن تعبر عن نفسها (Homi bhabha Ali, 1994 P19). باستخدام الأدوات النظرية والنقدية كالتحليل النفسي عند جان لاکان والتفكيكية عند جاك دريدا حيث يحاول هومي بابا علي إعادة طرح بعض المسلمات المتعلقة بمفاهيم القومية والتمثيل والمقاومة ويخلص إلى أن هناك طاقات كامنة وهائلة تتموقع فيما يسميه الفضاء البيني حيث تجد هذه الاختلافات الثقافية فرصة للتعبير عن نفسها. ويضيف بأن هذا الفضاء البيني ذو طبيعة هجينة Hybrid وملتبسة أحياناً مما يجعلها أرضاً خصبة لإنتاج ثقافة هجينة تتجاوز النزعة القومية والأصلية الضيقة إلى منطقة الفضاء الثالث الأكثر رحابة حيث تتمكن هذه الأقليات من تحدي الخطاب السائد فتؤسس لهوية ثقافية تأخذ شرعيتها وتظهر في لحظات تاريخية حاسمة. (Homi bhabha Ali, 1994, P20).

حسين حمر

إن آراء هذين الناقدین تدين لإدوارد سعيد بالكثير وهي تعتبر جوهرية في تأسيس النقد ما بعد الكولونيالي والنقد الثقافي وذلك بسبب اهتمامهما بتحليل مواقف المثقفين ودورهم في المنظومة الاجتماعية والسياسية التي ينتمون إليها. بينما يتميز إدوارد سعيد عن تلك الآراء في مفهومه للمثقف المنفي ودوره الذي يتأرجح بين رغبته في تغيير العالم ووعيه كمنتج للمعرفة وارتباطه بموقع فكري إنساني يصل أحيانا إلى حد الطوباوية. ففي حين تشكك سبيفاك في إمكانية أن يقوم الناقد والمثقف داخل المنظومة الثقافية الغربية بدور الوسيط حتى يستطيع التابع التعبير عن نفسه، يرى إدوارد سعيد أن وظيفة المثقف الدنيوي هي قول الحقيقة في وجه السلطة، (Speaking thtruth to power (Edward Said, 1983, P29)، لأن تشكيك سبيفاك يصل إلى حد التشاؤم حيث أن علاقة التابع بالسلطة هي علاقة ملتبسة فهذا التابع يرفض الانصياع للسلطة ولكنه لا يملك القوة التي تمكنه من تغيير موقعه، ولكن سبيفاك ترى في هذه الجهود محاولة استغلال وضع هذه الثقافات المهشمة خارج السلطة لإحداث تغيير سياسي معتبرة أنه من قبيل إعادة إنتاج الوضع الاستعماري المستغل للأقليات (Sarah Harasym,1990, P95). ثم إن تحيز هومي بابا علي للعنصر المهجين ذي الهوية المزدوجة في القوميات والأقليات بل إن مفهوم الهوية نفسه يتسم بعدم الثبات يمكن أن يبدو على السطح أنه صدى لآراء إدوارد سعيد عن التعددية الثقافية كما نجد في أعمال هومي بابا علي بأن مشروعه يقوم على تفكيك خطاب إدوارد سعيد وجياتري سبيفاك فيما يتعلق بالثنائيات غرب/شرق وسط/هامش فيحول بذلك تلك الاختلافات إلى صراعات على مستوى الخطاب والنصوص والهوية والقومية. (Robert Young,1990, P56).

3. 2 المنفى والهوية في كتابات إدوارد سعيد:

يصرح إدوارد سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية بأن مبدأ الهوية لثقافة ما أو لشعب ما ليس سوى إنتاج لفكره الثقافي، وأن الهويات في جوهرها متنوعة يستحيل اختزالها في عنصر واحد متجانس. وأن تجربة الإمبراطوريات من أكثر التجارب التاريخية التي ولدت تشابك الثقافات بحيث يمكن القول إنه ليست هناك أية ثقافات أصلية ، (Edward Said,1993,P11) ويجزم إدوارد سعيد بأن هذا الوضع المهجين للأفراد والجماعات يتصف بغناه وبتميز تراثه الثقافي. ولكننا لا نستطيع أن نكتفي بالقول بأن إدوارد سعيد مع التعددية أو الأزواج الثقافي على اعتبار أنه الوضع الأمثل والمصدر الوحيد للثراء الثقافي كما طرح العديد من أصحاب النقد الثقافي فيما بعد. ويدرك إدوارد سعيد تماما لإشكاليات هذا الوضع المهجين ولعل ارتباط موضوع الهوية بالمنفى عنده يجعل هذه المسألة ملتبسة ولا سبيل للوقوف عند كيفية تعامله مع هذه الإشكالية سوى استخدام الأدوات النقدية التي استخدمها إدوارد سعيد في قراءته للنصوص الثقافية والأدبية وأعني هنا القراءة الطباقية Contrapuntalism (Edward Said,1986, P3). ويتسم المنفى لدى إدوارد سعيد بالمتعة إذا استغل جانبه الإيجابي، على أن هذا

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

يجب أن يوازيه اعتبار منفاه نموذجاً يمثل قلق الهوية وما يصاحبه من اغتراب في الوطن أو اللغة ويتأرجح موقف إدوارد سعيد في المسألة بين الاحتفاء بالمنفى وقسوة التجربة ومعاناة أصحابها. إن كتاب إدوارد سعيد بعد السماء الأخيرة الذي أنجزه بالاشتراك مع المصور الفوتوغرافي جون مور J. Mhoor وهو تأملات مكتوبة بأسلوب عاطفي عن الاقتلاع والشتات والمنفى والهوية. وهذا العنوان مقتبس من قصيدة محمود درويش تضيق بنا الأرض التي كتبها عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان وخروج الفلسطينيين من بيروت حيث يصور درويش مرارة الشتات حينما يتساءل: إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟ إلى أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة؟ ومن صور فوتوغرافية لرجال ونساء وأطفال فلسطينيين داخل فلسطين المحتلة وخارجها يخاطب إدوارد سعيد اللاجئين الفلسطينيين الذين فقدوا ديارهم وأوطانهم والبعض الآخر المقيم في مناطق حدودية في جنوب لبنان وسوريا ورفع يقول إدوارد سعيد في مقدمة كتابه بأنه يصور تجربة الشتات الفلسطيني برؤية مزدوجة Double Vision أي برؤية كاميرا جون مور وعبون إدوارد سعيد من خلال تفاعله مع الصور وتعليقاته عليها(Edward Said,1986, P6) ، والكتاب ليس موضوعياً لأن الهدف منه هو تصوير الفلسطينيين بعبون فلسطينية، ولقد أعتبر أصدقاء الفلسطينيين بأن صور جون مور كانت أسلوباً جديداً لم يفعله أحد من قبل، ولقد الفلسطينيين بأن المصور السويسري رأنا كما نحب أن نرى أنفسنا داخل وخارج عالمنا في آن واحد وهذه الرؤية المزدوجة تمثل روح النص الذي كتبه إدوارد سعيد حيث وجدت نفسه أثناء الكتابة يبدل استخدام الضمائر نحن بأنتم وأحياناً هم كلها في إشارة للفلسطينيين (Edward Said,1986, P34). والكتاب من أكثر ثراء من حيث تناوله لموضوع الفقد والمنفى تحدث عن الموضوع بنبرة تمزج الشجن والشعور بالمرارة واللوعة بالرؤية المتفائلة التي ترى في المنفى طاقة إبداعية هائلة بل يمكن أن ترى فيها الهوية الفلسطينية في أقوى تجلياتها. والتساؤلات التي طرحها في أول الكتاب من نحن؟ هل نحن موجودون بالفعل؟ وما هو الدليل على وجودنا؟ (Edward Said,1986, P164) . تأتي الإجابة عنها في نهاية الكتاب إذ يرى إدوارد سعيد بأن الفلسطيني يجد نفسه مهاجراً ومزدوج الهوية ويشير إلى أن هذا الوضع ليس مرتبطاً بطبيعة وجوده ولكنه نتيجة للظروف التي وجد نفسه فيها ويسلم باستمرار وجود الفلسطينيين كأمة يكمن في وضعهم كمنفيين وفي ترحالهم المستمر.(Edward Said, 2003, P173) . ويمضي إدوارد سعيد في اكتشاف الطاقة الكامنة في هذه الوضعية في فصول كتاب تأملات في المنفى الذي نشر عام 1984 Reflections On Exile، حيث أكد بأن التفكير في المنفى شيء جذاب للغاية ولكن معاشته شيء فضيع جداً رغم احتفاء صاحب الكتاب بكتاب القرن العشرين الذين أرتبط إنتاجهم الفكري بالمنفى ويؤكد بأن إنجازات المنفى تكون ناقصة بسبب فقدان شيء كان قد ترك ولا سبيل إلى استعادته أبداً، (Edward Said,

حسين حيدر

(2003, P173)، وبدا إدوارد سعيد في هذه المرحلة من الكتابة أنه حول المنفى والمنفيين والمبدعين والكتاب كان من اليقظة بحيث لم يقع في الإشكالية التي وقع فيها بعض الذين كتبوا عن المنفى فيما بعد مثل فرانز فانون الذي يبدو متشككا وفي دور المثقف العضوي كما قدمه غرامشي (Edward Said, 1986, P26). وفي الحديث عن متع المنفى The Pleasures Of Exile، ولا يجب أن نغفل عن الحقيقة التاريخية كون المنفى يتسبب في تشريد الآلاف من البشر وفي ذات المقال يرى إدوارد سعيد بأن المنفى يخدم أفكار إنسانية ويصبح المنفى موضوعا جماليا وإنسانيا، إذ استفاد أدب القرن العشرين من المنفى كوضع دنيوي وتاريخي محض تسبب في شتات ملايين البشر باقتلاعهم من محيطهم الأسري والجغرافي والتاريخي (Edward Said, 1986, P67).

وهكذا فإن موقف إدوارد سعيد من المنفى كما بينته كتاباته يتسم بالالتباس تجاه موضوع الوجود الفلسطيني ذاته وموضوع الهوية والذي رآه متمثلا بشكل كبير في قصيدة محمود درويش بطاقة هوية حيث أن جميع أنواع إثبات هوية الفلسطينيين حتى بداية السبعينيات من القرن الماضي كانت تشير إلى كل الجنسيات عدا الجنسية الفلسطينية. والوجه الآخر للصورة يتمثل في شخصية المتشائل التي أبتدعها إميل حبيبي حيث يتساءل إدوارد سعيد هل كان المتشائل شخصية خيالية أم تجسيدا حقيقيا لجوهر وجودنا كفلسطينيين؟ (Edward Said, 1986, P68). ويرى بأن هناك حاجة ملحة للرد على تساؤله هل نحن موجودون بالفعل؟ ففي فصل الداخل Interior من كتابه بعد السماء الأخيرة يتحدث إدوارد سعيد عن فلسطيني الداخل مشيرا إلى فلسطيني 1948 والصامدين في الأرض المحتلة ويؤكد على أنه من المستحيل إنكار أصولهم الفلسطينية (Edward Said, 1986, P211) ويضيف بأن وجود هؤلاء الفلسطينيين يبعث على الاحترام والتقدير الشديدين وخاصة إذا ما قارناهم بالنظرات الحذرة والقلقة للفلسطينيين المقيمين في الغرب (Edward Said, 2000, P10)، وأما من ولدوا في بعد 1967 فهو الجيل الذي أخذ على عاتقه بناء المؤسسات المختلفة وهؤلاء الرجال والنساء الجدد يشع منهم شعور بالأمان والتفاؤل وإن صمودهم مادي وقوي لأنهم في فلسطين فهي بالنسبة لهم ليست فكرة كما تتمثل لمن هم في الشتات بل هي مكان له وجود (Edward Said, 2000, P11). إن كتاب بعد السماء الأخيرة هو صياغة ورصد لواقع الفلسطينيين في الأراضي المحرومة وفي الشتات مثل المنفى والغربة والعودة. في مقدمة سيرة إدوارد سعيد الذاتية في كتابه خارج المكان يؤكد على أن تجربة المنفى دائما ما يلازمها فقد شيء ما (Edward Said, 1986, P84)، ومن هنا فهو يرى بأن الكتابة بشكل عام وكتابة سيرته الذاتية بشكل خاص محاولة لتسجيل عالم مفقود أو منسي (صبري حافظ، 2000، صص 9-10). ويشير إدوارد سعيد في مقابلة له مع الكاتب البريطاني سلمان رشدي حول كتابه بعد السماء الأخيرة وما أثاره من أفكار ومشاعر المفعمة بالعاطفة تجاه قضيته الفلسطينية وكمواطن فلسطيني (Salman Rushdie, 1992, P184) لكن هناك فرقا بين السيرة

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

الذاتية لإدوارد سعيد في كتابه خارج المكان وبين سيرته في كتابه بعد السماء الأخيرة إذا سلمنا بأن هذا الأخير هو سيرته الذاتية الأولى ففي كتابه خارج المكان يتحدث عن تجربته الشخصية وحاجته لتجسير المسافة في الزمان والمكان بين حياته اليوم وحياته بالأمس، أما في كتابه بعد السماء الأخيرة فيمكن اعتبارها سيرة جماعية للذات الفلسطينية. فكل صورة من صور الكتاب تستدعي لديه ذكريات عن ماضٍ يثير تعليقاً على موقف أو حدث تاريخي. وهذا ما يجسد النفي المزدوج الذي تتعرض له المرأة الفلسطينية مرة بصفتها فلسطينية ومرة ثانية بصفتها امرأة حيث إن نفي هويتها جعل منها شخصاً تابعاً يرتبط بدورها كزوجة أو أم. يقول سعيد "لقد أدركت فيما بعد أن وجود المرأة كشخص موزع بين أدوار ثانوية وهو قدر كل النساء الفلسطينيات والعربيات هذه الصورة التي أقابلها طوال الوقت وهذه هي طبيعة وجودهن في مجتمعاتنا المختلفة" (Edward Said, 1986, P77). وهذه الصورة القائمة للنساء ووضعهن الذي يصوره فيلم الذاكرة الخصبه للمخرج الفلسطيني ميشيل خليفة جعلت إدوارد سعيد يرى في هذه الصورة التجسيد الحي لضمود المرأة الفلسطينية كفاعل أساسي في هذا المجتمع وهو الشيء الذي ينفيه الخطاب الرسمي الذكوري (Edward Said, 1986 P78). وفي نهاية الكتاب يتحدث صاحبه عن التاريخ الفلسطيني وهويته الفلسطينية وصيرورتها وتعددتها ويرى بأنها عرضة لتقلبات الزمن والتغيير والصعود والهبوط. إن هديني أن أقدم مع جون مور صورة لشعب يتسم بالحيوية التشظي وعدم الاكتمال (Edward Said, 1986, P166).

كما ارتبطت أعمال إدوارد سعيد عن دور المثقف بموضوع المنفى ولعل كتابه تمثيلات المثقف 1993 *Representation of the intellectual* وما يحتويه من مقالات عن المثقف ودوره هو توضيح لمفهوم المثقف المتحرر أو اللامنتمي إن مقالة إدوارد سعيد الموسومة بعنوان المثقفون المنفيون مهاجرون وهامشيون 2001 *Intellectual Exile Expatriates And Marginals* التي نشرت في كتابه تمثيلات المثقف (إدوارد سعيد، 2006، ص 92-116) في الفصل الثالث من ترجمة الدكتور محمد عناني وكذلك في مقدمة كتابه تأملات في المنفى الذي ترجمه نائل ديب. كما كانت الإرهاصات حاضرة بقوة في كتابات إدوارد سعيد في المقالين الشهيرين النقد الدنيوي *Secular Criticism* والنظرية المسافرة *Traveling Theory* واللذين تضمنهما كتاب العالم والنص والناقد *The World, The Text And The Critic* 1983 الذي يصور لنا فيه النقد الحقيقي بالنقد المشكك والدنيوي. (Edward Said, 1983, P26) حيث يعتبر النقد بحكم تكوينه قوة فاعلة في الحياة تكون عناصره متعارضة مع أي شكل من أشكال الطغيان والسيطرة والاستغلال (Edward Said, 1983, P29). وأن أنسب صفة تلصق بالنقد الحقيقي هي صفة المقاومة أو المعارضة لكل ما هو سائد

حسين حير

(Edward Said, 1983, P29)، وهذا هو القصد من لفظ الدنيوي عند سعيد. وفي بحث إدوارد سعيد المستمر عن الدور الناقد يشير سعيد بأن الناقد المعارض يجد نفسه في موقع يمثل نقطة محورية وحساسية A Sensitive Nodal Point بحيث يضطر لأن يأخذ موقفا مساندا أحيانا وناقدا في نفس الوقت للجماعة مما جعله يقر بأن المثقف الحقيقي هو الكائن الدنيوي (Jean Francois lyotard, 1984, P15) ، بيد أن وضع المنفى هو نقطة الارتكاز في الحديث عن الناقد أو المثقف الدنيوي من منظور سعيد. لقد أشاد سعيد بإنجاز الناقد إيريك أورباخ Erick Auerbakh وكتابه الشهير Mimesis أو المحاكاة برؤيته المزدوجة التي كان مصدرها إقامته في منفاه في إسطنبول مما أتاح له رؤية واضحة لنشأة وتطور الدراما الأوروبية من العصور الكلاسيكية وحتى نهايات القرن العشرين. إن مسؤولية المثقف تكمن في وضعه كوسيط نقدي يستطيع التعبير عن رؤى متعددة ومنها التعبير عن الفعل الثقافي الذي يراه سعيد نوعا من أشكال النضال ضد القوى الامبريالية فالمثقف المنفي كما ورد في كتاباته المتأخرة يميل لأن يكون هو الذي يتحرك دائما بعيدا عن السلطات المركزية نحو الهامش (Edward Said, 2000, P378) .

إن منفى المثقف عند إدوارد سعيد ليس المنفى الجغرافي بل يعني حالة انتقاء التسامح مع أية سلطة أو مهادنتها No Reconciliation Allowed (Edward Said, 2000, P378) ومن هنا جاء الحديث عنده عن متعة المنفى. لقد عاش إدوارد تجربة منفاه بطريقة طباقية، بمعنى أنه كان مثقفا داخل المؤسسة الأكاديمية الغربية في نفس الوقت الذي كان يأخذ موقفا لا منتما أو معارضا للسائد. ونظريته في الإستشراق هي تجسيدا لهذه التجربة المتسمة بالريبة والحذر من ناحية وبالفهم الذي يصل أحيانا إلى حد التعاطف مع قوى معينة (Edward Said, 1983, P15). وعلى سعيد الممارسة العملية على المثقف المنفي التحلي بنزعة إنسانية Humanistic. والتغيير (Edward Said, 2003, P34) .

إن القراءة الفاحصة لفكرة متع المنفى لدى إدوارد سعيد تظهر لنا تبينه مبدأ ثيودور أدورنو T. Adorno القائل بأن من الفضائل ألا يشعر الإنسان بالاستقرار في وطنه (Edward Said, 2003, P184) ، إن موقف إدوارد سعيد هو موقف نقدي واعي وثقافي شرحه لنا في كتابه العالم أجمع كأرض غريب The Entire World As A Foreign Land فمن الأفضل أن يحيا الإنسان مشتتا ومقتلعا على أن يحيا مسترضى مستملا تحت وطأة تابع مغلوب على أمره. وأفضل أن يحيا المرء صافي الذهن في منفاه على أن يعود عودة جامحة ولكنها مشوشة (Edward Said, 2000, P17) وكأنه بذلك يعبر عن الحكمة القديمة (العلم في الغربة وطن/والجهل في الوطن غربة). إن موقفه هذا يكاد يكون صدى لكلمات ستيفن ديدا لوس حين أعلن بأنه لن يكن في خدمة ذلك الذي لم يعد به مؤمنا وإن سمى نفسه أو أهله أو وطنه أو دينه. وحاول التعبير عن ذاته في

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

أسلوب من الحياة والفن بأقصى ما يمكنه من حرية ومن تكامل مستخدماً في الدفاع عن نفسه بالأسلحة الوحيدة التي يبيحها لنفسه وهي الصمت والمنفى والذهاء (طه محمود طه، 1975، ص3)، لقد حكم بطل صورة الفنان في شبابه على نفسه بالمنفى كما خرج جيمس جويس نفسه من إيرلندا مختاراً العيش في القارة الأوروبية لينجو بنفسه من ضباب الحضارة الأنجلوسكسونية (طه محمود طه، 1975، ص4). لقد كان المنفى لدى جويس حلاً لصراعه الوجودي بين موروثه الثقافي الكاثوليكي ورغبة الفنان العالمي داخله لتجاوز هذه الحدود من هنا كان اتخاذه شخصية يولييسيس (بطل هوميروس الجوال) محوراً للمحمته الروائية عوليس Ulysses، وهذه ثورة إدوارد التي تتجلى في التحرر التام من أية تبعية ولكنها تهدي في ذات الوقت بالقيم الإيجابية والإنسانية حتى أعلن في مقدمة كتابه تأملات في المنفى أن العودة الكاملة غير ممكنة و أن الماضي لا يمكن استعادته بشكل كلي (Edward Said, 2003, P35)، ولذلك فهو يقتبس من ثيودور آدورنو هذا العزاء في أن تصبح الكتابة وطناً لمن فقد وطنه (Edward Said, 1999, P114).

4. الخاتمة:

إن طباقية إدوارد سعيد وتجليات المنفى في كتاباته بمتعتها ومتاعبها يجعله في النهاية يتبنى موقفاً ثقافياً ليبرالياً يتسم بنزعة كونية وإنسانية لقد كان إدوارد استعارة حيّة لفكرة المنفى في المحطات الأساسية من سيرته الذاتية وفي التنقلات الكبرى لتطورات تفكيره وفي مواقفه التي اتخذها بصدد المسائل الأيديولوجية والفلسفية والجمالية والأخلاقية والسياسية أن نفكر بفوائد المنفى كباعث على الموقف الإنساني والإبداع أمر لا يعني التقليل من عذاباته الكبرى.

وعليه فإن المنفى تجربة تسمح بإحياء الهوية وترتقي بها إلى وضعية أكثر اكتمالاً والمنفى ليس موقع امتياز يتيح للفرد ممارسة التأمل الذاتي بل هو بديل عن مختلف المؤسسات الجبارة التي تهيمن على معظم الحياة المعاصرة. ويتعلق المنفى بوجود الموطن الأصلي وحبّه والارتباط به ولكن ما هو حقيقي في كل حالة نفي ليس فقدان الوطن وحبّ الوطن بل أن الفقد موروث في الوجود ذاته للوطن وحبّ الوطن. ولا يمكن أبداً أن يكون المنفى عند إدوارد سعيد حالة رضى عن النفس

حسين حيدر

واطمئنان واستقرار الذي يمثل ذهنية الشتاء حيث تكون عواطف الصيف والحريف مثل العواطف الكامنة للربيع قريبة ولكنها ليست في المنال.

لكن السؤال يظل مطروحا كما طرحه إدوارد سعيد هل بوسع هذا المشروع النبيل أن يقدم حلا إنسانيا وتاريخيا بل عمليا لدرء الظلم الإنساني والتاريخي العظيم الواقع على أي فلسطيني منفي داخل وطنه وخارجه ؟

5. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- فاتن مرسي، 2005، متع المنفى ومتاعبه في أعمال إدوارد سعيد، مجلة ألف العدد 25، مصر.
- 2- دانتي إليجيري، 1969، الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف، مصر.
- 3- إدوارد سعيد، 2006، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر.
- 4-Diogenes Laertius, 1979، Vitac Pythagoras, Eds, Trans. R. Dhicks (U.S.A.).
- 5- إدوارد سعيد، 2003، حوار مجلة الشباب المصرية، مصر.
- 6- صالح فخري، 2000، دفاعا عن إدوارد سعيد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. لبنان.
- 7-Gayatri Spivak, 1988, Can The Subaltern Speak ?, Eds C. Nelson Macmillan England.
- 8-Peter Childs And Patrick Williams, 1997, Introduction On Introduction To Post Colonial Theory (Prentice Hall, England).
- 9-Gayatri Spivak, 1999, A Critic Of Post Colonial Reason (Harvard UP, U.S.A.).
- 10- Ali Homi bhabha, 1994, The Location Of Culture (London ;Routledge, England)
- 11-Edward Said, 1993, Introduction, Culture And Imperialism, (London :Vintage, England).
- 12 Edward Said, 1983, The World, The Text, And The Critic, (Cambridge, MA: Harvard UP, U.S.A.).
- 13-Edward Saïd, 1986, After The Last Sky, (London : Faber & Faber, England).
- 14-Edward Said, 2003, Reflections on Exile, (Cambridge, A: Harvard UP, U.S.A.).
- 15-Edward Said, 2000, Out Of Place: A Memoir (NY: Vintage Books, England).
- 16-Edward Said, 2003, Reflections on Exile, (Cambridge, MA: Harvard UP, U.S.A.).
- 17-Edward Said, 2000, Intellectual Exile; Expatriates And Marginal's The Edward Said Reader; Eds ; Moustafa Bayoumi And Andrew Rubin (NY, Vintage Books, England).
- 18-Edward Said, 1999, No Reconciliation Allowed, Reflections On Exile: Identity, Language, ED. André Aciman (NY: The New Press, U.S.A.).

متع ومتاعب المنفى في كتابات إدوارد سعيد

- 19-Edward Said, 2000, The Art of Displacement Logic of Irreconcilables, Mouna Hatoum's, London: Tate Gallery.
- 20-Sarah Harasym, 1990, The Post- Colonial Critic, Ed. (London: Routledge, England).
- 21-Robert Young, 1990 Writing History and the West (London: Routledge, England).
- 22-Salman Rushdie, 1992, On Palestinian Identity : A Conversation With Edward Said, (Imaginary Homelands, England).
- 23-Jean François Lyotard;1984, The Post-Modern Condition; A Report On knowledge Trans Geoff Bennington And Brian Massumi; C. Minneapolis U.Of Minnesota U.S.A.
- 24- صبري حافظ، 2000، رقص الذات لا كتابتها تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد 22، مصر.
- 25- إدوارد سعيد، 2000، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، ط1، دار الآداب للنشر والتوزيع، لبنان.
- 26- عزالدين المناصرة، 2004، إدوارد سعيد والأدب الثقافي المقارن: قراءة طباقية، مجلة فصول العدد 64، مصر.
- 27- طه محمود طه، 1975، مقتطفات من صورة الفنان في شبابه، موسوعة جيمس جويس، دار القلم، لبنان.